الحلقة الثامنة عشرة

احمد السباعي

obeikandl.com

بين كتابيّ شيخ الصحافة، الكاتب والأديب الأستاذ أحمد السباعي: «حبر على ورق»، والذي لم ينشر في الثلاثينات من القرن الماضي، وجرى التكتم عليه في حينه وما بعد من قبل صاحبه وناشره: حياءً من تواضع مستواه.. و«تاريخ مكة» الذي طُبع أربع طبعات متلاحقة في خمس سنوات.. كان آخرها في الربع الأخير من القرن الماضي.. تمتد طريق العصامية بكل رهقها وإرهاقها.. بكل صخورها وأشواكها ومنحدراتها وجفافها في كل شيء.. التي اختارها «السباعي» ليصبح في نهايتها: نجماً في الصحافة، ورائداً في «القصة»، وعلماً من أعلام كتاب التاريخ ورواته.

ورغم أنه وُلِدَ في مطلع القرن وفي فمه ملعقة من ذهب كما يقولون، لوالده الشيخ محمد الذي طال انتظاره لـ «ابن» يحمل اسمه من بعده.. بعد أن أوشك على بلوغ سن اليأس من الإنجاب.. فكان موضع تدليله وتدليل أمه له التي كانت تغنيه قائلة وهي تهننه: «أحمد حمادة لب القلادة.. أمهُ تُحبُه، وأبُوه زيادة»، ورغم أنه عندما حان موعد ذهابه إلى كتاب «زقاق الشِّيش».. خصص له «عبداً» ليرافقه في ذهابه وإيابه، إلا أنه كان صارماً حازماً قاسياً

في تربيته.. كان كمعظم آباء ذلك الجيل من مدرسة «اللحم لك يا سيدنا والعظم لي. أنت كسِّر يا سيدنا وأنا أجبِّر»!! فإذا استشار أصدقاءه في أسلوب تربيته لابنه لم يسمع منهم غير ما عرفه من الاعتماد على «العصا» و«الفلكة».. و«الحبال المفتولة»: «رب ولدك وأحسن أدبه..! ما يموت حتى يفرغ أجله»!!

* * *

لقد أمضى أديبنا الكبير وعصامي العصاميين حقاً.. قرابة عام وهو يحاول معرفة الألف التي «لا شيون عليها» أي لا شيء عليها، ثم انتقل إلى ما هو أصعب.. إلى أرجوزة الأبجدية التي تضم حروف الهجاء جميعها: «أبجد هوز. حطي كلمن. سعفص قرشت. تخذ ضظغ».. والتي أرهقته طويلاً إلى أن استطاع نطقها كيفما اتفق في ظل والد يحمل عصاته طوال الوقت.. وهو يتعجل تعليم «وحيده» حتى يتباهى ويفاخر به وينفع نفسه بعد عمر طويل..

لكن العجيب في هذا الطفل المدلل نسبياً.. والمحاط برعاية أبيه.. أنه اختار في الكتَّاب الذي أمضى به ست سنوات جانب «الغلابة» من الأطفال الذين عادة ما تكون ظهورهم وأقدامهم وأبدانهم بصفة عامة أرضاً مباحة لـ «الشيخ» أو «سيدنا» بالحق قليلاً.. وبـ «الباطل» كثيراً، إذ إن الكتاتيب وفصول المدارس في تلك الأزمان.. وربما.. إلى أزماننا هذه.. تنقسم إلى قسمين: قسم المحظوظين من أبناء المتنفذين والقادرين والوجهاء.. وقسم «الغلبانين» من الأيتام وأبناء الفقراء والمساكين ومن لا حول ولا طول لآبائهم..

وقد حدث أن اتفق الطلبة المحظوظين على «الغلابة» ذات يوم.. فساروا خلفه ومن معه من (الغلابة) في أزقة مكة وهم يستهزئون بهم ويسخرون منهم قائلين فيما يشبه الزفة: «دولا مين.. دولا مين: دولا نصارى والاَّ يهود... كُشّوا عليهم البارود»، فاختار هؤلاء الغلابة - فيما بعد - زميلهم «السباعي».. المتقدم عليهم مكانة وغنى لشكوى أولئك الطلبة المحظوظين عند شيخهم في اليوم التالي. استمع إليه الشيخ وعرف منه أسماء أولئك الطلبة، ثم صمت متأملاً قبل أن يستعيده ما قالوه، وعندما أعاد عليه ما قالوه «دولا مين.. دولا مين» أبدى الشيخ انفعاله وامتعاضه فجأة ومد يده إلى عصاه لينهال بها عليه ضرباً حتى دخل في غيبوبة من شدة الضرب.. بحجة قلة ذوق وقلة أدب هذا «السباعي» الذي يعيد على الشيخ كلاماً منحطاً كهذا!! ثم التفت الشيخ بهدوء إلى الطلبة المحظوظين ليقول لهم معاتباً بلطف: «يا واد ما تقعدوا عاقلين.. انت وهوَّ..؟!

استطاع السباعي.. في النهاية وسط ضغط ومحاصرة وقسوة والده عليه أن يحفظ القرآن في ثلاث سنوات وأن يجوده، وعندما توقف عن الدراسة في يفاعه بعد موت أبيه.. كان قد حفظ «الأجرومية» وبعض «ألفية ابن مالك»، وأجاد الكثير من العلوم والمعارف التي كانت تتيحها (المدرسة الراقية) التي أقامها الشريف الحسين في قلعة جبل هندي، وكان جميلاً أن لا ينسى عندما استقام له القلم أن يلغي «ألف.. لا شيون عليها» من حياة التعليم قاطبة عندما ألف كتابه: «سلم القراءة العربية» في ستة

أجزاء.. ليحل تدريسه محل ألف «لا شيون عليها» و«أبجد هوز».. وبقية هذه الأحاجي.

لكن موت والده.. تركه وحيداً في مواجهة التزاماته العائلية التي كان لابد وأن تقع عليه.. إلا أنها تزامنت مع ردة فعله الطبيعية على سنوات القسوة والحرمان من أدنى ألوان الترفيه في ذلك الزمن: سواء أكانت لعباً في أحد الأزقة.. أو مشاهدة لـ «مزمار» في برحة.. أو مشاركة في لعبة «الكَبَت» ببرحة الفل في المسعى، ولذلك اندفع يعوض حرمانه من «قيلة» إلى «طلعة» إلى «سهرة».. مع «مطاليق» الحارة و«أشقيائها» في الوقت الذي كانت والدته فيه تعطيه الجنيه بعد الجنيه ليتاجر به في «الحراج» كما كان يدعي.. بينما كان في الحقيقة ينفقه على «قيلاته» وطلعاته، لكن روح المؤلف المبكرة فيه.. كانت قادرة على تبرير أفعاله، عندما كان يعود بين الحين والآخر ببعض الريالات ليسلمها إلى والدته باعتبارها «أرباحاً» حققها.. لتتلقف جدته لوالدته هذا الخبر السعيد قائلة: «شاطر والله.. يا ولدي. روح الله يكسِّبك»..!!

إلا أن تبريراته القصصية هذه لم تنفع ولم تشفع فيما بعد.. عندما وصل إلى آخر جنيه في «علبة» والدته دون أن يحقق شيئاً فعلياً من الأرباح.. حتى بدا له أن الحظ - الذي لم يكن يؤمن به - يعاكسه، وأنه قد يصبح كذلك «التاجر المنحوس» الذي شنَّع على نحسه أحد الأدباء.. قائلاً: «لو أنه تاجر في الزيت.. لمحا الله آية الليل»..!؟

ومع ذلك غيّر من طبيعة نشاطه: من «الحراج» و«الحلقة» إلى فتح «بقالة».. أعانه على رأس مالها أحد أقربائه، إلى جانب ما تبقى لديه من آخر جنيهات والدته، وأخذ يستقر فيها.. إلا أنه لم يُفلح «بقالاً» كما لم يفلح من قبل لا في الحلقة ولا في الحراج. لقد كانت جدته تقول عنه إنه «ولد متفلسف»..؟

لكن جدته هذه.. كانت تؤمن به، وبأكاذيبه الصغيرة، و«تلافيقه» التي يُخرج بها نفسه من استنفاده لجنيهات والدته، أو من تأخره أو عدمِ رغبته في الخروج ليلاً.. كيوم أن مرضت إحدى سيدات العائلة فنُصحت بأن تشرب من ماء زمزم طوال اليوم.. فكان عليه أن يذهب – إلى بئر زمزم – لإحضار الماء مرات في اليوم الواحد، ولكنه عاد إليهم بعد يومين – وقد تعب من هذا المشوار – ليقول لهم بأنه «رأى يداً تمتد إليه من الجدار وتمسك بالدورق الذي ملأه وتقبض عليه.. فسحبه بقوة وعاد يجري»!! فأمّنت جدته على ما قال فوراً «لأن عيونك كشّافة، وصاحب اليد من الشياطين الذين لا يحبون ماء زمزم»!! وهي تطلب منه أن لا يخرج في الليل ثانيةً.. وهو الأمر الذي كان يسعى إليه. لقد كانت «جدة» تملك حشداً لا ينضب من هذه الرؤى العجيبة.. إلى جانب قصص لا تنتهي عن الملائكة والأولياء والجن و«أصحاب الخطوة» الذين يصلون الفجر في الحرم المكي، والظهر في المسجد النبوي والعشاء في بيت المقدس، فكانت تبهره حكاياتها وأساطيرها وخرافاتها.. كقولها بأن عين زبيدة هي من نهر دجلة، وأن أحد الجان أحب زبيدة.. فطلبت منه أن يوصل «دجلة» بمكة.. فأقام لها عين زبيدة،

obeikandl.com

أو كقولها.. بأن الأرض محمولة على قرن (ثور)، فإذا تعب قرنه الأيمن.. نقلها إلى قرنه الأيسر فتحدث الزلازل وتتفجر البراكين، حتى لأحسب أن تلك القصص والأساطير.. كانت تضع في قلبه وعقله شيئاً.. وربما أشياءاً لا حصر لها، وعندما اكتشف نفسه.. وعثر عليها بعد رحلة معاناته التعليمية وضياعه بين برحات الفل، والمروة، ووادي الزاهر، وفشله في التجارة.. «خُضرياً» أو «بقالاً»، كان مخزونه من قصص جدته وأساطيرها والتلافيق التي كان يبرر بها أفعاله أو يحقق بها أهدافه.. يشكل البئر أو المنجم التي منحت منها موهبته الأدبية التي تأخر ظهورها كما قال في كتابه الجميل «أيامي».. بأن «هلوسة الأدب أدركته في سن متأخرة»!! ومع ذلك فقد كان أول أعماله الأدبية التي ظهرت إلى الناس هي قصة «فكرة»، وكان ثانيها.. هو كتابه «فلسفة الجن»..!!

* * *

لقد جاءت نقطة التحول في حياة الشاب (أحمد السباعي).. والتي ستنقله من حياة إلى حياة عندما زاره أحد أصدقائه في بقالته ذات يوم، ليعرض عليه العمل «مدرساً» للقرآن الكريم في واحدة من هذه المدارس الجديدة التي افتتحت بعد «النهضة».. فتخابث رافضاً وقلبه يطير فرحاً بعرضه، ليوافق في النهاية.. ولينتقل إلى عالم التدريس وأوساط المعلمين الراقية وإن كانوا جميعاً مثله - كما قال - «خريجو كتاتيب عالية لم تتعد الطور الابتدائي أو المتوسط».. إلا أن تلك النقلة التعليمية كان لها الفضل الأكبر في توسعة أبواب قراءاته لينتقل من قراءة قصص حسن البصري،

و«دليلة المحتالة»، و«الشاطر حسن» الذي ساقته معشوقته من الجان إلى جزر واق الواق وفيها «رأى وراء المعمورة دنيا جديدة، تثمر بعض أشجارها رؤوساً كأنها رؤوس الآدميين، تنطق ألسنتها في أصوات عالية (واق.. واق. سبحان الملك الخلاق)».. إلى قراءة «الريحانيات» للأديب اللبناني الفذ أمين الريحاني.. وإلى «حديث القمر» لفنان الكلمة مصطفى صادق الرافعي.. وإلى جبران خليل جبران الذي أزاح عن نفسه الكثير من أرتال موروثاته البالية..

ومع عودة جريدة «بريد الحجاز».. من جدة إلى مكة لتصدر - بعد ذلك بسنوات قليلة - باسم: «صوت الحجاز» بإدارة محمد صالح نصيف، ورئاسة تحرير الأستاذ عبدالوهاب آشي.. وتَشَكُّل جيل أدباء الرعيل الأول في بداية الخمسينات الهجرية (الثلاثينات الميلادية) منه ومن محمد سرور الصبان، ومحمد سعيد العامودي، ومحمد حسن عواد، وجميل مقادمي، وعمر عرب، وحسين نظيف، وتفتح الأجواء لنهضة أدبية جديدة في بداية عهد الملك عبدالعزيز.. حمل المدرس الشاب (أحمد السباعي) مجموعة مقالاته التي كان يكتبها خفية ولا ينشرها، وقد قرر نشرها فيما يشبه «المجلة» أو «الكتاب» وذهب بها إلى الشيخ محمد سرور الصبان وقد «كانت له مكتبة في شارع اليوسفي لبيع الكتب الأدبية وكان له مركاز في ردهة المكتبة. ليعرض عليه فكرة طباعة تلك المقالات في كتاب».. فاقترح عليه بعد أن قرأ بعض تلك المقالات أو تلك «الخبصة» كما أسماها السباعي بشجاعته فيما بعد.. وأن يسميها: «حبر على ورق» (!!) وأن طباعتها - في القاهرة - ستكلفه عشرين جنيهاً.. مع موافقته

على اقتسام التكلفة بينهما. ثم أخذ منه العشر جنيهات «حيلة الشب يارب» - التي جاءه بها - كما قال الأستاذ السباعي فيما بعد.. ليودعها الصبان بين دفتي الكتاب، ويضع الكتاب نفسه على رف من رفوف المكتبة، وينسى الموضوع.. بينما أخذ المؤلف الشاب يتردد عليه متسائلاً عن الكتاب الذي لم يصل والشيخ الصبان يتعلل، ويتحجج في كل مرة بحجة.. إلى أن اعتزم السباعي السفر بنفسه إلى مصر وإلى المطبعة التي كان من المفترض أن تطبع الكتاب. ليفاجأ هناك بأن المطبعة لم تستلم الكتاب أصلاً.. وأنه لا علم لديها بهذا الكتاب لا من قريب ولا من بعيد، ليعود إلى الشيخ الصبان غاضباً.. فيقول له بدهائه المعروف: ماذا أفعل..؟ لقد عادت أصول الكتاب، وهو يسلمه إياه ومعه العشرة جنيهات!؟

لقد كانت «الصدمة» كبيرة على الكاتب الشاب، ولكن السباعي.. فهم الدرس، وأدرك المغزى.. بل وحمد للشيخ الصبان أن تستَّر على ذلك و«كتم الدم على القيْح» كما قال الأستاذ أحمد السباعي في كتابه الرائع «أيامي».. وهو يرويها بشجاعة الكبار حتى تتعلم الأجيال!!

لقد ولد في ذلك اليوم.. الكاتب أحمد السباعي.. والذي سيغدو نجماً ورائداً وعلماً بعد عقدين من الزمان: يقرأه الناس في لهفة.. ويتتبعونه في شوق.. وهم يفسحون له مكان الصدارة بينهم أديباً ونجماً وكاتباً ليترأس تحرير أكبر صحف تلك الأيام وأهمها: «صوت الحجاز».. ولينشئ فيما بعد «الندوة» اليومية.. ف

«قريش» الأسبوعية، وهو يصدر الكتاب بعد الآخر.. حتى نافت كتبه عن اثنى عشر كتاباً، كان فيها: الكاتب الفنان.. قاصاً في «فكرة» و«خالتي كادرجان» و«أبو زامل»، والفيلسوف.. مفكراً في «يوميات مجنون» و«فلسفة الجن»، والمصلح.. داعية في «دعونا نمشي» و«مطوفون وحجاج»، والمؤرخ.. راوياً في «تاريخ مكة».. الذي يعتبر بحق أهم وأعظم كتبه.

لقد كان «السباعي» عظيماً بكله: قلماً لا ينسى ونبضاً وطنياً متقداً.. وتاريخاً لا يغيب، وكان حصوله على جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).. اعترافاً عادلاً بنجاحات صعبة في الزمن الصعب.

obeikandl.com